مطالع الأعوام

للأستاذ عبد العزيز البشرى

جرت عادة الناس من الزمان البعيد أن يفرحوا أو يتكلفوا الفرح كلما طالعتهم دورة الأيام بعام جديد . وكثير منهم من يتخذ من مطلع العام عيداً ، يلبس فيه جديد الثياب ، ويحتفل لتهنئة الصحاب واستقبال الهناء من الصحاب ، ويتفرّغ من كل عمل ليتوفر ومن يحمل من الأهل والولد على إصابة ما يتهيأ لهم من اللذائذ والمتع ، وتقليب العِطف فيما يتيسرّ من ألوان النعيم . كذلك جرت عادة الناس ، أو عادة أكثر الناس

ولو قد راجع المرء نفسه فى هذا ، وراح يتحسس الأسباب والعلل فى ذلك الذى يكون منه فى مطالع الأعوام ، فليت شعرى لِمَ هو فى غاية الأمر راجع ؟ . أتراه فرحاً بأنه طَوَى من عمره عاماً ؟ . أم تراه فرحاً بأنه سينشر من عمره عاماً ؟

وإن عجباً دونه كل عجب أن هذا الانسان الأثِر ، المتشبث بأسباب الحياة ، مهما تذلل وتوجع ، يفرح بطىّ صفحة من حياته ، وقطع مرحلة من عمره ، فيدنو من الغاية المحتومة التى ماذكرها إلا ملىء من ذكرها فرقاً ورعباً !

وإن عجباً لاينتهى منتهاه عجبٌ أن هـــذا الانسان الجبان المنخلع القلب ، الذى لايرى إن يقيناً وإن وهماً ، فى كل ثنيّة من ثنايا الغيب ، وفى كل منعطف من منعطفات الدهر ، إلا مايرتصد له ، ويتربص به الدوائر ، ويرميـه ما أسحرت به الأيام بألوان المكاره والمخاطر — اللهم إن عجباً لاينتهى منتهاه عجب أن يفرح هذا الانسان باستقبال كل هذا الذى يتوقع من أذى طارقات الليـال !

إذن فقيم فَرح الأنسان بدورة الأيام ، واغتباطه ذاك بالتخلص من غام لاستقبال عام ؟

ليت شعرى أتراه يضيق بالحياة ويبرَم بها ، ويسرّ كلما طوى من كتابها صفحة ، واقترب من غايتها خطوة ؟ . اللهم إن الأنسان لأكلف بالحياة ، وأودّ لو تطّرد به إلى غاية الزمان ، وإلى ما بعد غاية الزمان ! . أليس أكبر عزائه فى هذه الحياة إذا عرض ذكر الموت ، ولا مفرّ منه ، أنه مبعوث من بعده لحياة لايدركها عدم ولا يلحقها فناء ؟

إذن ففيم فرح الأنسان بدورة الأيام ، واغتباطه بالتخلص من عام لاستقبال عام ؟

ألاَ إن أعجب من هـذا كله أن يراجع الأنسان نفسه ، ويسائلها فيم اغتباطها وفرحها من حيث يجب أن يتداخلها الأسى وتلحّ عليها الحسرة من كل مكان ؟ !

اللهم إنه ليكلف بطول العمر ، ويكلف بقصر العمر ، وإنه ليشغف ببسطة الأيام ، ويشغف بنفاد ما بقى بين يديه من الأيام ! . اللهم إنه لا يستريح إلى هذا المحال ، إلا من كان به مسّ من جنون أو مسّ من خبال !

* * *

ليس الانسان مجنوناً ولا مخبّلاً ؛ بل إنه ليفكر فيحسن التفكير ، ويقدّر فيصيب التقدير ، ويدبّر فيُحكم التدبير . وإن عقله الجبار ليأبى إلاّ أن يستذلّ عنقَ الطبيعة كلّ يوم . وهاهوذا لايفتأ يسخر لحاجاته جوّها وماءها ، وأرضها وسماءها ، بما لايحتاج معه إلى قيام دليل على صحة العقل وسلامة التفكير !

مالنا بعد هذا بدّ من التدسّس إلى قرارة النفس ، والتسلل إلى ثنيّاتها ، علّنا نُصيبُ الوجه ونستخرج العلة فى ذلك الذى نحسبه فى المحال !

ها نحن أولاء نتحرّى خطرات النفس ، ونتقرى خلجات الحس ، فنسير وراءها حيثما سارت ، وندور معها كيفما دارت . حتى إذا بلغت سائلتها القرار ، تهيأ لنا أن نروى عنها أصحّ الأنباء وأصدق الأخبار .

هذا الانسان العاقل المفكرّ المدبرّ ، يجزع حقاً أشد الجزع لما ينطوى من أيام عمره ، ولقد يهش حقاً لما يستقبل من بقايا أيام الحيـاة . غير أنه لا يعقد أية صلة بين هاتين النزعتين القويتين فى نفسه ، فهذه تكون منه فى حال ، وهذه تكون فى حال ، فليس ثمت فى الأمر طلب للمحال . فاذا طلبت بياناً فاليك البيان :

إن علة العلل فى كل هـذا الذى ترى من تناقض الانسان ، وخلاف نزعات نفسه بعضها لبعض ، إنما هى فيما طبع عليه من

الأثرة وشدة الكلَف بالنفس . فهذه الأثرة هى التى تدخل عليه الفزع لما فني من سني العمر ، وهذه الأثرة هى التى تدخل عليه السرور بما يستقبل من بقية أيام الحياة ، وإن شئت قلت بما يقبل على استهلاكه من بقايا أيام الحياة !

أما أن الأثرة هى التى تدخل عليه الجزع لما يتصرّم من أيام العمر ، فيدنو به خطىً إلى مهواه من القبر ، فذلك ما لا يحتاج إلى توجيه ولا إلى تعليل ، وأما أن هـذه الأثرة نفسها هى التى تُدخل عليه السرور بما يُقبل على استهلاكه من بقايا أيام العمر . فذلك بأنه ما يُفنى من حياته يوماً إلاّ أطمعته أياماً ، ولا يَطوى من عمره عاماً إلا بسطت بين يديه أعواماً : فالأنسان ، على إيمانه بالموت ، وجزمه بألاّ مهرب منه ، لا يفتأ يدافع الأجل كلما تقدم خطوة الى الأجل ، وهكذا ، حتى لو قُدّر فى الزمان أن يُبسط فى عمر إنسان الى ألف عام ، لوسوس له تأميل الأثرة بعدُ بالمزيد !

وعلى هذا فمهما يَطْوِ الانسان من سنّه ، ومهما يُفنِ من عمره ، فان ما خلا يكاد يسقطه من مساحة العمر بما يُجدّ له التأميل كل يوم من بسطة الزمان بين يديه ! فيعيش كذلك ما يعيش ، وكأنما يمتح من بحر لجىّ ما لمأه من نفاد !

وكذلك القول فى تطامن الأنسان لمستقبل الأيام واستبشاره ، فى غالب الأحيان ، بمقدمها ، وقلة احتفاله لما عسى أن يكون قد جُنّ له من المكاره فى ضمائر الغيوب ، فان هذه الأثرة نفسها لتأبى إلا أن تطالعه بألوان التأميل ، فلا يتنظر له من واردات الليالى إلاّ كلُّ مشتهى وكل جميل ! بل إنها لتدخل عليه أحسن العزاء بما سيلقى من الخير والعافية عما كان قد أصابه من الخيبة فيما سلف من الزمان !

فقد بان لك أن الأثرة فى الأنسان هى علة العلل ، وهى مصدر ما يُحسب عليه من خطأ فى الحساب ومن خطل

* * *

وبعد ، فلو قدّر أن الله أمكن للمرء من طبعه ، وهيأ له أن يسوّى منه ما شاء على ما يشاء . أفتراه يَعتمد هـذه الخلة فيه ، أعنى الأثرة ، فينتزعها من فطرته انتزاعاً ، فلا تعود تخدعه وتختله ، ولا تُزيغه عن الواقع ولا تضلله ؟

لا شك فى أنه إن فعل سلم تقديره ، واستقام له القياس ، وأدرك الحقائق على ما هى عليه لا على ما يشتهى أن تكون ؛ لأن هذه الأثرة كثيراً ما تُلبس المنى بالحقائق الواقعة . وقد تستدرج الانسانَ إلى المطامع البعيدة بما تهيئ له من إجراء القياس ، فى شأن نفسه ، على ما يقع من الأمور النادرة فى شئون بعض الناس . وبهذا وبهذا تُسيء تقديره ، وتفسد حكمه على الأشياء أيما إفساد . وأنت بعدُ خبيرٌ بأن السعادة فى هذه الدنيا لا تُرجى بخير من الأصابة ، والتهدّى إلى جوهر الحقائق ، وسلامة التقدير وصحة التدبير . وتلك الطرقُ الواضحة ، لا شك ، لأسعاد الحال ، وإدراك المبتغى من ميسور الآمال

ولكن . . . . ولكن إذا قدّر هـذا فى الطبيعة ، وتهيأ للانسان ففعل ، فعلى أية صورة تُرى يتمثل له العيش فى الدنيا ، وبأى شعور يتلقى آثار هذه الحياة ؟

إنك مهما تجتث من أصول هـذه الأثرة المغروسة فى طبيعة الانسان ، فانه ، ولا بدّ ، يألم إذا دخل عليه مايدعو إلى الألم . وهو ، لا بدّ ، يلتذّ بما يصيب من المتع ، وإنه ليستريح إلى العافية ، وإنه ليفرح بما يصيب من النعم ، وإنه ليحزن إذا طرقته داعياتُ الحزَن ؛ وتلك أدنى مطالب الحس فى الحيوان ، بَلْهَ الانسان

فلو قدّرنا أن الانسان قد استوى فى عيشه الى الحقائق الواقعة ، وأجرى حسابه فى جميع أسبابه عليها ، فهل تراه يعدل مايصيب فى الدنيا من لذة ومتاع ، بما يعانى من شـدائد وبُرح وأهوال وأوجاع ؟ . اللهم لا ! . على أنهما لو تكافآ فأضحى خارج الحساب صفراً ، لأمسى التشبث بهذه الحياة من إحدى المعابث !

على أنه الأملُ ، أملُ المنىّ المبتلى فى العافية ، وأمل المعافى إن كان فى الدنيا معافىً ، فى صعود الجد ، وفى إقبال الزمان بما تتطلّع النفوس اليه وتهفو له — هو الذى يرجّح كفة الريح ويشهى الينا الحياة ، ويغرينا بالحرص عليها أيما إغراء !

وما كانت هذه المُنى فينا لتقوى وتستمكن ، وتستفحل وتستحصد ، لولا هذه الأثرةُ التى تُذلل لأوهامنا عصىّ الآمال ، وتسوى لنا فى صورة الممكن ما نظمته الطبيعةُ فى سلك المحال !

هذه الأثرةُ التى تغبينا عن كثير من الأشـياء ، حتى إنها لتغبينا عن أدنى مايحيط بنا من الأسـباب ، بل إنها لتغبينا عن أحقّ الحق الذى لا نستطيع مدافعته ولو بالأوهام ، أعنى الموتَ